د . ابو العيد دودو

الاسلاك الملتهبة

كان كل شيء يسالني .. اهذا ما كنت تحلم به من وراءالمسافات؟ ويكرر السؤال مائة مرة ، والف مرة ، ويشغلني عن الجواب ، بل يصرفني حتى عن التفكير فيه . كنت في تلك اللحظة اسير في حديقة المركز الذي كنت اسكنه ، وعذابي في لحظتي . وكانت اضواء المصابيح الباهتة تشيع حولي حزنا موجعا . لم اكن اسير وحدي . كان دمي يسير معي ، يتقاطر من انفي طورا ، ويتدفق طورا اخر ، فيخيل اليّ اني اسمع وشوشة دفقته .. او غناءها الشجي. لست ادري ، فقد كان التعب يثقل مشيتي ، وينبت الرصاص في اعماقي ، والارض تشرب من دمي باستمرار . اهذا ماكنت تحلم به من وراء المسافات ؟

وتوالى النزيف دون توقف .كنت اعاني منه ما يزيد عن ثلاث ساعات ، تتخللها فترات مختلفة الطول ينقطع فيها . كان ذلك شيئا يحدث لي لاول مرة ، والمسافات لا تزال تعيش معي . فلا هاتف ،ولا سيارة اجرة ، ولا صديق . اختفى الاصدقاء مع الليل ، وصاروا جزءا من احلامي ، وما الاحلام الا ابعاد مضنية . ذلك ما اكتشفته بعد لقائي مع الارض قبل شهر على التقريب . كنت خلال هذه الفترة اعمل واحيا على ذكرى ما كتبت .. دون ثمن محفز ، وكان العمل والذكرى معصرة . واليوم فاض دمي من انفي فتشكل ما عانيته من نزيف داخلي فوق صفحة وجهي، فاصبحت احمل طابع عصري علنا !

ووقفت على باب جناح ، يسكنه احد معارفي الجدد في المركز. كنت اعرف انه لا يستطيع ان يفعل شيئا ، لكنني .. بصفتي انسانا .. كنت في حاجة الى كلمة طيبة، لفظة رثاء ، حتى لا اشعر بوحدتي مع الدم . ودققت الباب ، فخرج ابو امل ، وبكى لمنظري، واحاطني باحدى ذراعيه ، وحاول ان يسعفني دونما فائدة . وتركته واقفا بباب جناحه ، وابتعدت عنه ، وانا الاخر ابكي لمنظره المشفق .

واشفق عليّ الامل بعد لحظات . فقد وقف امامي غريب ، لم اره الا مرة واحدة ، وكان قد راى في ضوء المصباح الخافت ،الذي كنت واقفا تحته ، الدم يسيل فوق قميصي الابيض ، واستوضحني الامر ، ونطق بكلمات لا اذكر الا انها جعلتني اشرق بدمعي واعجز عن الجواب . لقد ابكتني عزلة المسافات ، وقسوة الابعاد . واحضر سيارته ، واخذني الى المستشفى .

حين رجعت من المستشفى كان طابع العصر قد تحول الى داخلي. فقد سد انفي بفتائل بيضاء ، غير ان الدم ظل يغمر حلقي ، فكنت اشعر بحرارته . ودلفت الى غرفة النوم ، فوجدت زوجتي لا تزال تبكي منذ ان تركتها ، ووصلت بكاءها مع الليل في الغرفة وفي فكري . وسرعان ما بدأ وجهي ينتفخ ويتضخم . وتحسست انتفاخه برؤوس اصابعي ، لاني اجرؤ على اشعال الضوء والنظر اليه في المرآة !

وكان طعامي خلال يومين كاملين ما ينحدر من دمي الى بطني. كنت اشعر على الدوام بتوتر في وجهي، فحال ذلك بيني وبين النوم ، فلم اكن اغفو الا لاستيقظ متألما .. واجلس في فراشي، وافكر في وضعي المتأزم . وكلما شعرت بوجع في بطني تصورت ان الدم قد بدا يتحجر في معدتي . واتناول الدواء من يد زوجتي ، وكلانا يرثي للاخر . انها مثلي تعاني ايضا من ثقل المسافات . وقمت الى المرآة لارى وجهي ، فانكرته ، وحاولت ان اتبرأ منه ، لكن التوتر كان رفيقه ورفيقي !

وبلغ بي التعب في اليوم الثالث منتهاه ، فنمت حوالي منتصف الليل ، وما ان اخذني الكرى حتى انتشر النهار حولي ، وعم النور ذهني ، وصرت اشعر بوعي حاد لوضعي . ورأيت نفسي في غرفة معتمة رغم ما حولي من ضياء .فرغبت في النظر الى خارج الغرفة، ورحت ابحث عن منفذ اطلق منه بصري،لكن الظلام ازداد كثافة، وشعرت به يقترب من عيني،ويكاد يحول بيني وبين ما في جوانحي من ضياء .

وبعد حين لاحظت ، دون ان ادري كيف تم ذلك ، شكل انسان، في نافذة الغرفة ،تغطيه الواح صغيرة مستطيلة من الدم ، ارتسمت بصورة شبه عامودية ، وقد اكتنف حمرتها سواد خفيف .ووجدتني خائفا من هذا الشكل الانساني ، وتراجعت نظراتي عنه ،ولكن اصراره على الوقوف في منفذ النور امام عيني ، اغراني في النهاية بمداومة النظر اليه ، فاخذت ابحث عن وجهه ، عن ملامحه ، عن مكان قلبه .. عن ضميره قبل كل شيء . كنت اظن انه لم يتخذ شكل انسان الا لان له خصائص الانسان ،غير اني لم ار شيئا من هذا كله .

واحترت في امره ، وكبر خوفي منه . واحتفظ بوقفته دون ان تصدرعنه اية حركة ، وفجاة مد يدا خشبية ، تشبه يد الانسان الالي ، لم اتبين نوعية علاقتها بشكله ، ورفع خشبة مستطيلة في الجانب الايسر من وجهه ، فلمحت حينئذ عينه . كانت هذه عبارة

عن كرة من بياض ، ومع ذلك كان يخرج منها شيء كالاسلاك الملتمعة . وعلى الرغم من اني كنت اجهل في تلك اللحظة موقع فمه من تلك الكتلة الدموية ، فقد توقعت ان يقول كلمة ما ، لكنه ظل صامتا . ومضت بضع دقائق بدا لي خلالها ان اسلاكه الملتمعة تنتصب لتتخذ صورة الرماح ، ثم دوى فجاة صوت ، لم ادرك مصدره ، وتردد حولي :

ـ الكلمات رماح .. وبنو عمك فيهم ..

وركب ذلك الشكل الظلام واختفى بسرعة ، وكلماته تفقد صداها شيئا فشيئا وتغدو كالانين . ونهضت من فراشي ، بعد ان عاد الضوء يعم الغرفة ، واتجهت الى النافذة ،وفي نيتي ان اتبعه ، فقد اعتبرت كلماته دعوة لي ! وعثرت في حافة النافذة على لوحة صغيرة ، لم اشك في انها كانت ضمن شكله . فرفعتها ونظرت في هيئتها ، فلاحظت بجانب منها كلمة مكتوبة بحروف رقيقة .. هي كلمة .. الاخوة . فتلفظت بها في الم . ربما لان اللوحة كانت تحمل سمة الاخاء .. ولانها اتخذت شكل الرمح دون ان يكون لها مضاؤه .

وشددت على اللوحة ،وسرت في طريق مستقيم ، تصورت ان ذلك الشكل الدموي قد سلكه . وشدتني من بعيد بناية كبيرة ، كان بابها الابيض الوديع يسبح في اضواء باهرة ، وكان اهتزازه كانه يومىء لي ان تعال . وحين وصلته انقطع عن حركته ، فاجتزته ولوحة الاخوة في يدي . واذا بي اجدني على عتبة درج كبير ، بجانبه مصعد فخم. وعرفت في الحين اني في مستوصف حديث. وبدأت اصعد الدرج ، وانا انظر حولي مبهورا بمعالم الحداثة في داخل البناية . وقد جلب انتباهي منذ البداية ان الباب لم يكن به حارس ، فاعتبرت ذلك علامة بشرى .. وتابعت طريقي .

وقابلتني عند نهاية الدرج في الطابق الاول غرفة بابها مغلق، فقررت ان ابدأ جولتي منها . لقد كان هدفي واضحا . ودققت الباب بهدوء . فلم يكن من حقي ان ازعج مرضى المستوصف !وانتظرت لحظة ، ثم وضعت يدي على مقبض الباب ، ودفعته الى أسفل ،فانفتح الباب ، فقرأت فوق الجدار في نهاية الغرفة كلمة « الانتظار » وقد كتبت بحروف كبيرة ، كانت تغطي مساحة الحائط . وان هي الا لحظة حتى رأيتها تتحرك ، وراحت تشب بعد حين في جو الغرفة وتطير بسرعة مذهلة . وكلما اصطدم حرف باخر ند عن ذلك الاصطدام صراخ مرعب :

ـ لا اريد ان انتظر !

فاسرعت اغلق الباب ، واقف في الممر من جديد . لقد اخافتني ثورة الانتظار ، ولم ادر ان كان ينتظرني انا بالذات .. فعلاقتي به لم تكن في يوم من الايام متينة! المهم انني فررت منه ، مع ان وجهي المنتفخ قد يروق له! وانتقلت الى الغرفة التالية ، فاستقبلتني وظيفتها عند الباب . كان الباب مغطى بطبقة كثيفة من الاوراق، واستطعت ان ارى من خلال نافذة الغرفة ان الجدران بدورها مغلفة باوراق ، اختلفت احجامها واشكالها ، والوانها ، فجعلتها ذات منظر عجيب . وقفت اذن امام مكتب المستوصف !

لم الح احدا داخل المكتب ، فشعرت بلهفة لرؤية انسان ما ، ولذلك دفعت الباب وانطلقت الى داخله ، فقد اجد ما ابحث عنه في زاوية من زواياه . قد يكون هناك شخص ،اخفى راسه في خزانة من الخزانات ليستخرج من اعماقها شيئا له علاقة بعمله ! لكن رجلي تعثرت في كومة من الاوراق ، فوقعت على وجهي قرب الاوراق المتناثرة فوق الارض .. لتضاف الى ما كان مستقرا فوقها من قبل. ويبدو ان دخولي المفاجيء قد اهاجها فراحت تتساقط فوقي ،لتحول بيني وبين اتقدم خطوة اخرى !

كان هدفي واضحا . كنت ابحث عن انسان يرشدني الى طبيب يوقف سيلان دمي . كنت اتصور العثور على طبيب في مستوصف : امر في منتهى البساطة ! وكم كنت مخطئا ، فقد اغرقني المكتب في كوم الاوراق ولم يقدني الى هدفي ، اتراه هو الاخر مجردا من الهدف ؟ اخذت ادفع الاوراق عني ، وتحاملت على نفسي ونهضت ، وانفي يؤلمني بشدة اكثر . واحتضنني الممر مرة اخرى . فلا زلت آملا متطلعا . هناك بعد غرف متعددة . لا بد ان اجد فيها كاتبا او ممرضا .. او طبيبا .

وطالعني في باب الغرفة التالية عنوان ، انقبضت له نفسي انقباضا كبيرا . لقد كانت مرسومة فوقه كلمة«الرشوة!» فادرت وجهي عنها ، لاني كنت مدركا لوضعي . فانا اعمل موقتا دون مقابل. والتفت الى الغرفة المقابلة ، فقرأت على بابها « القرابة ! » فابتعدت عن هذه ايضا . ليس لي شيء من ذلك في هذا المجال . وخطر ببالي في تلك اللحظة يمين ابقراط ! لكني لم أطل التفكير في هذا الامر ، فقد صرفتني عنه عناوين اخرى ، كانت تسلط اضواءها على وجهي ، لتخفي ملامحه السوية في اصلها ! فشرعت اتلوها بصوت خائف ، وكانت على التوالي : القلق ، الخوف ، التوتر ، النزيف ، التبلد ، الهوس ، الانهيار.. الجمود .

وكانت اخر غرفة ، وتقع في زاوية صغيرة بعد الممر مباشرة في مقابل الدرج ، تحمل عنوان « الراحة النفسية ! » واعترتني هزة لرؤيتها ، ودفعني نحوها شوق عارم ، فمددت يدي لافتا ، وانا اردد : ما احوجني اليها . ثم تذكرت انها مرتبطة ايضا بصحتي الجسمية ، وذلك ما جعلني اتردد قليلا في فتح الباب ، واحاول ان القي على وضعي نظرة شاملة . وشعرت بصورة ملحة اني في حاجة الى ان اعود الى قلمي واكتب اي شيء على الاقل ، فالتوقف يعني بالنسبة لي الموت الفكري .وقررت اخيرا ان افتح الباب واندفع بكل قواي الى .. الراحة النفسية . الا اني وجدت بابها مغلقا !

وجلب انتباهي ممر اخر ، يتجه نحو اليمين ، ويقع في مقابل الدرج الذي يصعد الى الطابق الثاني ، وقد كتبت على مدخله بحروف غليظة كلمة « الطموح » . وجدتني اتساءل .. هل هناك طموح بالنسبة لي غير الراحة النفسية التي وجدت بابها مغلقا ؟انها مطمحي .. فهي التي تتيح لي ان اكون منتجا في ميداني الخاص .. ولكن مع توفر الصحة الجسمية . وهذا سبب كاف لدخولي الى جناح الطموح. وهكذا دفعت الباب بكتفي ودخلت . فماذا وجدت ؟

كان الجناح كله عبارة عن مستودع لردم الاوراق والملفات المغبرة، ولم تكن بهذا الممر غرفة واحدة ، ولكن كان به حوالي خمسة نوافذ ، تطل كلها على حديقة المستوصف المزدهرة . ولم اجد ما يغريني الى التوقف فيه طويلا ، فقد كان جوه خانقا الى حد فظيع . فبادرت بالخروج من بابه المقابل . وحين اقتربت من الدرج لاحظت الى جانبه مصعدا ، كتبت على بابه كلمة « الطبيب » ، وبجانبها سهم يشير الى اعلى . فركبته في الحال ، وصعدت الى الطابق الثاني ، والامل يخفف من حدة انتفاخ وجهي . غير اني بدأت اشعر بالتشاؤم بمجرد ان تلقفني ممر في الدور الثاني ... اذ لاحظت فوق احد الجدران كلمات كثيرة ، كتبت بشكل هرمي ، منها : الاهمال ، انعدام الشعور بالمسئولية ، التلاعب ، التواكل ، المحسوبية ، الوصولية .

واجهدت نفسي في التغلب على تشاؤمي ، ودخلت اول غرفة ،

فاذا هي مكتب جميل . لم يكن يحتوي على الاوراق فقط . كان به مكتب ، فوقه هاتف ابيض اللون ، وبه خزانة للادوية وآلات الفحص، وطاولة للفحص . لقد اعاد منظره الامل الى نفسي . كان المكتب خاليا ، هذا ما لاحظته لاول وهلة ، ولكن احتواءه ، على آلات حديثة كان يعني ان الانسان على مقربة من هذه الالات ، يستفيد منها ويفيد بها غيره . ولم اشك في انه منشغل بآلة ما في مكان ما لا يبعد كثيرا.

وانتقلت الى الغرف المجاورة ، وبحثت طويلا دون جدوى . والغريب ان ابوابها لم تكن تحمل اي نوع من الكتابات ، مع انها لم تكن تختلف في مظهرها الخارجي عن الغرف التي كنت قد مررت بها في الطابق الاول . وتبين لي في النهاية ان الممر نفسه مسدود . ولما دخلت اخر غرفة فيه اسلمتني الى غرفة ثانية ، وهذه الى ثالثة ، ثم رابعة وهكذا . واخيرا وجدت نفسي في قاعة كبيرة ، عرفت بسرعة انها قاعة العمليات الجراحية . كانت تحتوي على مصابيح كبيرة ، وطاولة مستطيلة ، وبجانبها اخرى صغيرة فوقها عدد من الباضع والملاقط والعلب المعدنية ، وآلات التخدير وخزانة للادوية المختلفة .

لم أنس اني كنت ابحث عن انسان ما ، بغض النظر عن الوظيفة التي يشغلها في المستوصف . ولذلك غادرت غرفة العمليات من بابها الاخر ، فافضى بي بدوره الى مكاتب وغرف اخرى ، كانت نظراتي تلصق بجدرانها وواجهات نوافذها كلمة .. اليأس . كانت هناك ابواب متعددة ذات طابع واحد ، تنتصب امامي وعن جانبي . وكثر انعكاس نظراتي فوقها ، وانا اكتفي بالنظر الى هذا وامر من ذاك . ومع ذلك حاولت ان اطرد اليأس عني ، فقد يفجر دمي بشكل اغزر . واشركت سمعي في عملية البحث هذه ، فاخذت اصغي ، علي اسمع همسة او حركة ، فقد اصبح الصمت المطبق وسط الاضواء الكثيرة امرا لا يطاق، فهو يفتح المجال لتسرب اليأس من جديد الى صدري وحركاتي .

واخيرا خرجت من احدى تلك الغرف ، وانا لا اعلم موقعي من المستوصف ، فجابهني باب كبير ، وضعت فوقه لافتة ، تحمل كلمتين، كتبتا فوق مساحة خضراء ، هما « قيمة الانسان ! » واذكر ان منظر اللافتة ابهجني الى ابعد حد . جلست فوق الارض لاستريح انعم بالتامل في شكلها البهيج . وقبل ان اجتاز الباب تاكدت من انطباع صورتها في ذهني ، فسوف تدلني عند عودتي على الاتجاه ، الذي ينبغي لي ان اسير فيه ، كما دلتني الان على اني سأجد خلف الجدار، الذي يحتضنها ، ضالتي . وهتفت .. فلانطلق اليها !

دفعت الباب بلطف ودخلت . وفي الحال شعرت ان شيئا ينهار في صدري .. وتراءت امام عيني صورة قلب يحترق على الطريق . ونسيت ان لي وجها مشوها ، فضربت فوقه .. من شدة احساسي بالحسرة والالم .. بكلتا يدي ، فوقعت لوحة الاخوة من يدي . وانحنيت ارفعها بيد بينما ظلت يدي الاخرى تمسد مكان الضربة لتخفف من حدة الوجع . لقد استقبلتني قاعة فارغة تماما ، لم يجلب انتباهي فيها سوى ما كان يبدو على جدرانها من الق وبهاء !

كان علي اذن ان اواصل بحثي ، وان اتخطى تلك القاعة ، فقد تكون بداية المنطلق ، وقد يسقط ناظري خلفها على اثر ما لانسان . وبدات رحلة مريعة . فقد اتضح لي بعد حين ان الغرف والمكاتب اخذت تضيع مني تدريجيا . اصبحت قليلة الوجود ، ولم اعد ارى امامي سوى السلالم والنوافذ ، نوافذ صغيرة ، لا تصلها اليد ، وسلالم معوسة في اعلاها كانها تتحدى بعضها بعضا بصدورها المنتفخة. واغرب ما في الامر ان المسافة بين السلم والسلم لم تكن تتجاوز بضع خطوات .

انطلقت اصعد واهبط ، واهبط واصعد ، وانا اتحرق شوقا الى معرفة ما وراء تلك النوافذ الضيقة ، ما دامت السلالم تتقابل ويتلقى احدها صدى الاخر . وكنت امني نفسي باني سأجد حتما نافذة قريبة من راسي اطل منها واتنسم هواء اخر ، فقد كنت المح النهار خلفها . لكن السلالم راحت تسحبني بعيدا بعيدا ، واختفت النوافذ من فوق راسي ، ولم تبق غير الجدران والسقوف، والسلالم تجرني وتجرني ، كما لو ان الامل في نهايتها . وتساءلت .. واين نهايتها ؟ أهي المسافات تتجسد من جديد ؟

تيقنت في النهاية اني ضائع لا محالة ، فتخلصت من شد السلالم لي ، نفضت ما بقي من امل ، وعدت ادراجي بسرعة . لا بد ان اصل الى العلامة التي تركتها خلفي .. على بعد لم ادر مقداره . لن ينقذني بعد الا تلك اللافتة ، الا قاعة « قيمة الانسان » ! وحثثت خطاي ، يلفظني سلم ، ويلتقفني اخر ، دون ان ادري في اي طابق انا . وصعب علي ان اعثر على علامتي في ذلك التيه ، ففزعت .. صرخت .. بكيت .

واخذت نظراتي تخط فوق الجدران سؤالا كبيرا .. كيف اخرج من هذا التيه ؟ وتقدمت في حذر ، واذا بسلم يلقي بي في ممر طويل، انتصبت على جوانبه أصص الورد والزهر والخضرة . احسست عندئذ ان الاختناق ، الذي كنت احس به قد زايلني ، وخطر ببالي ما خبرته قبل ذلك من تيه ، ففضلت ان اضيع بين تلك الاصص .. لارتوي معها .. فلم يعد الخروج بالنسبة لي شيئا مصيريا !

وجلست قربها ، وشغلت نفسي بالنظر اليها ،وبعد مرور ثوان شعرت بحركة في نهاية الممر ، فرفعت راسي .. وداهمتني دهشة . لمحت شكلا انسانيا يتحرك نحوي . وعرفته في الحين . لم يكن وحده في هذه المرة ، كان خلفه حشد من الاشكال الدموية . وحين اقترب مني كشفت نظراتي عن ملامحه . كانت الاسلاك لا تزال تلتمع في عينيه رايت عينيه في هذه المرة بكل وضوح . وفكرت .. لعل لوحة الاخوة ، التي حملتها معي ، كانت قد سقطت من فوق عينه الاخرى . التقطتها من بين الاصص وقدمتها له ، فلمسها بيده ، ثم اعادها الي ، واذا بها تكتسب من لمسة يده مضاء الروح .

وظل واقفا ينظر الي ، فشعرت ان اسلاكه تضيء اعماقي ، وكانه احس بعد ذلك باحساسي ، فقد رايته يبتسم ، والكلمات تحوم حول فمه ، كان موقع فمه واضحا ايضا ، وقال ، وهو يشير الى رفاقه :

ـ هؤلاء بنو عمك . لقد عرفوا المسافات ايضا ، لكن الارض احالتها وردا وزهرا ! قم ! تعال معنا !

قلت :

ـ صارت المسافات مجرد ذكرى . فبنو عمي فيهم ..

وقبل ان اكمل جملتي ، امتدت من عيون الحشد الكثيرة اسلاك ملتمعة ، وكلمات مشرعة ، والواح مضيئة ، اتخذت كلها شكل الرماح. وحين نهضت ووقفت بينهم وانا ادمي مثلهم ، رايت السلالم والسقوف تتجمع لتقع على راسي ، فلم اخف منها .. لم نخف منها . تلقتها رماحنا المشرعة ، وتمانقت الواح الاخوة ، فاخضر الممر حول وتحت اقدامنا ، وصفت وجوهنا .. وتلاحمت زنودنا .

* * *

واستيقظت من نومي ، الذي كان ، فيما بدا لي ، قد طال ، فوجدت ابا امل منحنيا فوق سريري ، وهو يقول ويده ماسكة بيدي:

ـ قم ، يا اخي . اليوم ربيعي ، ينشر الدفء والبهجة .

قلت مبتسما ، وقد سرني اني لا ارى شكل ابتسامتي :

ـ والزهر يعم الحقول حول مركزنا .

وجاءتني زوجتي بالدواء ، فتناولته على مضض ، ثم خرجت مع ابي امل الى الحديقة ، وهو يسندني بيده ، وصور المستوصف تطاردني !

الجزائر ، بن عكنون